وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة تكريت
كلية التربية للعلوم الانسانية
قسم التاريخ
الدراسات العليا / دكتوراه
المادة : استشراق

المستشرقون وموقفهم من أهل الذمة

أ.د. مثنى عباس عواد

للعام الدراسي : ٢٠٢٥ / ٢٠٢٦

المستشرقون وموقفهم من أهل الذمة

تمهيد موجز

يُقصد بأهل الذمة غيرُ المسلمين الذين أقاموا في ظل الدولة الإسلامية بموجب عقدٍ يكفل لهم الحماية والأمن وحرية ممارسة شعائرهم، مقابل التزامهم بجملة من الواجبات المالية والنظامية، وفي مقدمتها الجزية. وقد تناول الفقهاء هذا النظام ضمن مباحث السياسة الشرعية وأحكام أهل الكتاب، ومن أبرز ما صُنّف فيه كتاب أحكام أهل الذمة لـ ابن قيم الجوزية، الذي جمع فيه النصوص الفقهية وأقوال السلف في بيان شروط العقد وحدوده.

غير أن موضوع أهل الذمة لم يبقَ حبيس المدونات الفقهية، بل أصبح في الدراسات الحديثة مادةً مركزيةً في قراءة طبيعة الدولة الإسلامية وبنيتها الاجتماعية. وهنا برزت كتابات المستشرقين، التي قدّمت تصورات متعددة ومتباينة حول هذا النظام، بين نقدٍ قانوني صارم، وتحليلٍ تاريخي مقارن، ومراجعات منهجية أكثر توازنًا.

أولًا: القراءة الاستشراقية المبكرة – التركيز على البنية القانونية

انشغل عدد من المستشرقين الأوائل بالبنية الفقهية لنظام الذمة، فدرسوه بوصفه مؤسسةً قانونيةً تعبّر عن طبيعة التشريع الإسلامي. وقد برز في هذا السياق اسم إغناطيوس جولدتسيهر، الذي رأى أن كثيرًا من الأحكام المتعلقة بغير المسلمين تطوّر في إطارٍ فقهي لاحق، وأن الصورة التشريعية النهائية لا تعكس بالضرورة واقع القرن الأول الهجري بقدر ما تعكس تنظيرًا قانونيًا متأخرًا.

أما جوزيف شاخت فقد تعامل مع نصوص الفقه باعتبارها نتاجًا لتطور طويل، ورأى أن نظام الذمة – كما استقر في كتب الفقه – يمثل بناءً قانونيًا تراكم عبر القرون. وانطلاقًا من هذا التحليل، صوّر بعض الباحثين النظام بوصفه صيغةً تكرّس التفوّق الديني والسياسي للمسلمين، من خلال فرض الجزية ووجود قيود اجتماعية معيّنة.

تتميّز هذه المرحلة بتركيزها على النصوص المعيارية (الفقهية) أكثر من الواقع الاجتماعي، مما أدى أحيانًا إلى قراءةٍ تجريديةٍ للنظام، تغفل تفاوت التطبيق واختلافه باختلاف البيئات التاريخية.

ثانيًا: الاتجاه المقارن – بين التسامح النسبي وعدم المساواة

مع تطوّر الدراسات التاريخية في النصف الثاني من القرن العشرين، ظهرت مقاربة مقارنة تسعى إلى فهم وضع أهل الذمة في سياق العصور الوسطى عمومًا. ويُعدّ برنارد لويس من أبرز من عالج هذا الموضوع؛ إذ رأى أن نظام

الذمة لم يكن قائمًا على المساواة الكاملة، لكنه – في الوقت نفسه – أتاح لغير المسلمين قدرًا من الحماية والاستقرار القانوني لم يكن متاحًا دائمًا للأقليات في أوروبا الوسيطة.

وقد أشار لويس إلى أن أهل الذمة احتفظوا بتنظيمهم الديني ومحاكمهم الخاصة وأحوالهم الشخصية، وأنهم شاركوا في الحياة الاقتصادية والإدارية في عصور مبكرة، خصوصًا في العصرين الأموي والعباسي. غير أنه شدد في الوقت ذاته على أن هذا الوضع لم يبلغ مستوى المواطنة المتساوية، بل ظل قائمًا على التمييز القانوني.

تقوم هذه المقاربة على مقارنة تاريخية لا على محاكمةٍ معيارية حديثة، لكنها لم تخلُ من انتقادات، إذ رأى بعض الباحثين أنها ما تزال تنطلق من تصورٍ يرى الإسلام إطارًا حضاريًا مغلقًا، حتى وإن أقرّ بتسامحه النسبي.

ثالثًا: مراجعات نقدية – تفكيك الأساطير المتقابلة

في العقود الأخيرة، ظهرت دراسات سعت إلى تجاوز الثنائية الحادة بين "عصر تسامح مطلق" و"عصر اضطهاد دائم". ومن أبرزها أعمال مارك كوهين، ولا سيما في كتابه Under Crescent and Cross، حيث انتقد ما سمّاه "الأسطورة البكائية" التي بالغت في تصوير التاريخ الإسلامي سلسلةً من الاضطهاد، كما انتقد الخطاب الدفاعي الذي قدّم صورة مثالية لا تاريخية.

يرى كوهين أن وضع أهل الذمة كان متغيرًا ومركّبًا؛ فقد شهد فترات استقرار واندماج اقتصادي وثقافي، كما عرف لحظات توتر وصراع ارتبطت غالبًا بظروف سياسية أو اقتصادية. ومن ثمّ، فإن تعميم حكم واحد على جميع العصور يُعدّ اختزالًا مخلًا.

هذه المراجعات اعتمدت على وثائق تاريخية وسجلات إدارية ومصادر غير فقهية، مما أتاح رؤيةً أكثر قربًا من الواقع الاجتماعي، وأقل ارتهانًا للنصوص المعيارية وحدها.

رابعًا: أثر الخلفية الفكرية في تشكيل الموقف

لا يمكن فهم تصورات المستشرقين عن أهل الذمة بمعزل عن السياق الثقافي والسياسي الذي تشكّلت فيه. فقد أشار إدوارد سعيد في كتابه الاستشراق إلى أن الاستشراق لم يكن نشاطًا معرفيًا محايدًا في جميع مراحله، بل ارتبط أحيانًا بخلفيات أيديولوجية واستعمارية أثرت في صورة الإسلام في الوعي الغربي.

وفي ضوء هذا الطرح، يمكن تفسير تركيز بعض الدراسات على عناصر التمييز في نظام الذمة بوصفها دليلًا على "اختلاف جوهري" بين الإسلام والحداثة. غير أن تعميم هذا الحكم على جميع المستشرقين يظل غير دقيق، إذ إن كثيرًا من الباحثين المعاصرين قدّموا قراءات علمية لا تحمل نزعة تبشيرية أو استعمارية.

خامسًا: قراءة تحليلية عامة

:يمكن استخلاص جملة من الملاحظات حول موقف المستشرقين من أهل الذمة

.التفاوت المنهجي: تراوحت الدراسات بين تحليلٍ فقهيٍّ نصّي، ودراسةٍ اجتماعيةٍ تاريخية

الإشكال في المقارنة: كثير من الأحكام صيغت بالمقارنة مع مفاهيم المواطنة الحديثة، وهو ما قد يُفضي إلى .قراءة غير منصفة للواقع الوسيط

تأثير السياق السياسي: ظهرت بعض الدراسات في سياقات صراع حضاري أو استعماري، مما انعكس على نبرة .التحليل

التحول نحو التوازن: تميل الدراسات الأحدث إلى الابتعاد عن الأحكام القطعية، وتقديم صورة أكثر تعقيدًا .وواقعية

وعند النظر إلى العصرين الأموي والعباسي – بوصفهما مرحلة التشكّل والتوسع الحضاري – يتضح أن مشاركة غير المسلمين في الإدارة والطب والعلوم والترجمة كانت ملموسة، الأمر الذي لا ينسجم مع صورة .الاضطهاد الشامل، ولا يبرر في الوقت ذاته الادعاء بوجود مساواة كاملة

خاتمة

يتبين من العرض أن موقف المستشرقين من أهل الذمة لم يكن موحدًا، بل اتسم بالتعدد والتطور عبر الزمن. فقد بدأت الدراسات بقراءة قانونية تجريدية ركّزت على عنصر التمييز، ثم اتجهت إلى مقاربات مقارنة، .قبل أن تتبلور مراجعات نقدية أكثر توازنًا تسعى إلى فهم الظاهرة في سياقها التاريخي

ومن ثمّ، فإن التعامل العلمي مع هذا الموضوع يقتضي التحرر من النزعات الدفاعية أو الاتهامية، والالتزام بمنهج تاريخي نقدي يُراعي طبيعة المجتمعات الوسيطة واختلاف معاييرها عن معايير العصر الحديث. وبهذا يمكن أن تتحول دراسة أهل الذمة من مجال جدلٍ أيديولوجي إلى ساحة بحثٍ تاريخي رصين يكشف عن .تعقيد التجربة الإسلامية وتنوعها